ذكرى ابي بكر الصديق رضي الله عنه

بمناسبة وفاته في مثل هذا الشهر من سنة ١٣ للهجرة (٥)

ان الامم الرشيدة اليوم لتحرص أشد الحرص على نشر مناقب رجالها العظماء واظهار مآثر ابطالها الاجلاء ، والتغني بمحاسنهم ، والاشادة بفضائلهم . ولها في ذلك طرق كثيرة : منها نصب التماثيل لهم في الشوارع المسلوكة والمواضع المعروفة ، ومنها تأليف الكتب في سيرهم ووضع المصنفات الخاصة بتراجمهم ، ومنها القاء المحاضرات في المجامع الحافلة

وقد سبق سلفنا الصالح الى ذلك فصنفوا الكتب الكبيرة في تراجم عظمائهم ، وبعض هذه كان خاصاً بترجمة رجل ، مثل الكتاب الذي الفه أبو الفرج ابن الجوزي في سيرة عمر بن عبد العزيز . وبعضها خاص بصنف من أهل العلم والأدب ، كالكتب الموضوعة في تراجم الشعراء خاصة ، والنحاة واللغويين خاصة . والكتب التي وضعها أسلافنا الكرام في ذلك تكاد تفوت الاحصاء

وانما عُنيت الامم الفاضلة قديماً وحديثاً بنشر فضائل عظمائها لما يعود عليها بذلك من الفضل والفخر اذ أنه لا نزاع في أن كثرة العظماء في الامة مما يدل على كرم عنصرها وشرف محتدها واستعدادها للتقدم والرقي وانها صالحة لأن تجاري الأمم الأخرى في ميدان الحضارة وفي نشر فضائل العظماء . الا بعدله شيء من ايقاظ الهمم وشحذ العزائم وتحريك النفوس الى أن تسلك سبيل اولئك العظماء وتسن سننهم فيما تبلغ به شأوهم وتدرك به أمدهم ، وذلك أن الفضل ليس ميراثاً خاصاً بعشيرة أو بقبيله أو شعب أو أمة أو زمان وانما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

(٥) قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه (٤ : ٤٧ طبعة القاهرة) : وتوفي ابو بكر مسي ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة

من عباده الذين ألهمهم ووفقهم الى ادراكه . والاستعداد الى بلوغ العلياء يوجد في كثير من الناس وانما يقعد بهم عن ذلك وهن العزيمة وعدم الباعث ، والعزيمة انما يولدها الباعث والمشوق ، وأعظم باعث وأقوى مشوق استماع سير العظماء وقراءة تراجمهم ، وهذا يدركه من هيأه الله للعلى بالذوق

نعم ان طريق المعالي وعرة شاقة : يعترض فيها كثير من الصعاب ، ويحفها كثير من المكاره والاخطار . وانما كان ذلك ليميز الخبيث من الطيب والفاضل من الناقص ، ولولا ذلك لاستوى الناس كلهم ، قال أبو تمام :

قد علمنا أن ليس إلا بشق النفس صار الكريم يدعى كريما

وقال أبو الطيب المتنبي :

لو لا المشقة ساد الناس كلهم الجود يعدم والاقدام قتال

ولما في الاطلاع على سير العظماء من تحريك النفوس الى الاقتداء بهم والتأسي بهم في الصبر على ما يعترض في سبيل العلى من المكاره ورد في القرآن الكريم طائفة من قصص الرسل عليهم الصلاة والسلام التي تبين صبرهم ونباتهم واحتمالهم في الدعوة الى الله مشاق عظيمة ومكاره جسيمة وقد نبه الله تعالى الى ذلك حيث قال « واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقال « ان الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » وقال « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب » وان في الاشادة بذكر العظماء والتغني بمناقبهم مكافأة جليلة وجائزة سنية تقدمها الامة لهم على ما لهم عليها من الايادي البيضاء والنعم الغراء ، فان الرجل لا يكون عظيما الا اذا كان ذا طول على الامة التي فيها نشأ واليها انتمى ، كأن يكون قائداً حالفه الظفر فقهر الاعداء وفتح الاقطار والبلدان ، أو يكون عالما جليلا نفع الامة بعلمه وقادها به الى السعادة والتؤدة ، أو يكون سياسيا داهية يصل بلطيف رأيه وصائب نظره الى حيث لا يصل السيف ، أو يكون ذا مال سلط على هلكة ماله في انشاء

المدارس ونشر المعارف واكرام أهل العلم والادب وبناء دور المرضى للفقراء والمساكين . ولا ريب أن أسباب العظمة هذه هي ايادٍ جليلة للعظماء على الامم يستوجبون بها عظيم المكافأة وكبير الاثابة . والمكافأة على الخير من أعظم أسباب الحض عليه. وفي العظماء أصحاب النفوس العالية والسجايا الشريفة من لا يرى ثوابا اكبر ولا حظاً أوفر ولا جزاء أسنى من أن ينشر ذكره ويذاع فضله ، وقد حكى القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام أنه قال « واجعلْ لي لسان صدق في الآخرين » ويذكر من قرأ كتاب كليلة ودمنة أن ذلك الطبيب الفاضل برزويه الذي بعث به أنوشروان ملك الفرس الى بلاد الهند لاستنساخ كتاب كليلة ودمنة انه لما جاء بنسخة منه عرض عليه أنوشروان أن يختار ما يكافئه به لم يؤثر مالا ولا منصباً ولا حظاً من حظوظ الدنيا على أن يضع له وزير أنوشروان ترجمة تضم الى كتاب كليلة ودمنة وتقرأ معه، وقال برزويه « فان الملك اذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف وأعلى المراتب ، وأبقى لنا مالا يزال ذكره باقياً على الابد حيثما قرىء هذا الكتاب »

فنحن نقصد ـ في هذه المحاضره ـ الى ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ونبذة من سيرته لانه من أجلّ رجال الامة العربية التي ترفع بهم رأسها بين الامم ، وتحريكا لنفوس أبناء أمتنا الى الاقتداء به والتخلق بأخلاقه السامية والتأدب بآدابه العالية. ثم اننا نرجو أن نقضي بذلك بعض الحق من الاشادة بذكره الذي استوجبه بما له في أعناقنا من المنة وماله على أمتنا من الطول والفضل كما ينجلي فيما يأتي

وأبو بكر رضي الله عنه يكاد يجمع المسلمون على اختلاف مذاهبهم انه أفضل الامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان النبي ينوّه بفضله في حياته : ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ان من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله

أبا بكر » وجاء في حديث آخر عنه أنه قال « ما لأحد عندنا يد الا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فان له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر وماعرضت الاسلام على أحد الا كانت له كبوة الا أبا بكر فانه لم يتلعثم ». ولعلنا نورد في محاضرتنا هذه من مآثره مايشبه مقامه في نفوس الامة ، وهذا حين الشروع في المقصود

﴿ اسم ابي بكر ونسبه ووصفه ﴾

كان من عادة العرب اذا أرادوا أن يدعوا رجلا كبيراً في أعينهم تحاشوا أن يدعوه باسمه الذي وضع له أولا وعمدوا الى كنيته فدعوه بها تعظيما واكبارا فلذلك كانوا يكنون الرجل منهم أو المرأة منذ الصغر، وربما غلبت الكنية على الاسم وتنوسي . وكان أبو بكر قد غلبت عليه كنيته واشتهر بها حتى لم يكن يدعى الا بها ، فلذلك خفي اسمه على كثير من الناس، واختلف المؤرخون فيه فذهب بعضهم الى أن اسمه عبد الله وذهب آخرون ان أن اسمه عتيق

وكان من عادة العرب أن تلقب أبناءها بالالقاب المشعرة بالمدح ، وقد يلقب الرجل منهم الآخر بما يشعر بالذم ، ولهذا يقول النحويون اللقب ما أشعر بمدح أوذم . ولقد لقب أبو بكر بالصديق والمعروف أن سبب تلقيبه بذلك كثرة تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويذهب بعض المؤرخين الى أنه لقب بذلك في الجاهلية لانه كان كثير الصدق كما كان النبي صلى الله عليه وسلم ملقباً بالامين لاشتهاره بالامانة في الجاهلية . وأبو أبي بكر يدعى أبا قحافة وأمه تكنى بأم الخير وقد أسلما وعاش أبوه الى ما بعد موته . وهو قرشي من بني تيم يجتمع هو والنبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب

وقد روى عن ابنته عائشة أنها وصفته فقالت : كان أبيض نحيفاً ، خفيف العارضين أحنى ، معروق الوجه غائر العينين ناتىء الجبهة ، عاري الاشاجع ، تام الشعر

﴿ أبو بكر في الجاهلية ﴾

ما كانت العرب قبل الاسلام في الجاهلية تعنى بتدوين أخبار رجالها وتهتم بحفظها مرتبة مفصلة، وانما ترد بعض اخبار الرجال متفرقة ولا يذكر منها الا النبأ العظيم غالباً، ولذلك يعذر الباحث عن أحوال عظماء الصحابة في الجاهلية في اقتصاره على شذرات يسيرة من أخبارهم وأحوالهم

عرف من أخبار أبي بكر في الجاهلية انه كان يشتغل بالتجارة وكانت صنعة كثير من أشراف قريش : كانوا يذهبون بالبضائع الى الشام ويستبدلونها ببضائع الشام ثم يعودون بها الى الحجاز فيبيعونها . وكان لهم رحلتان احداهما في الشتاء والاخرى في الصيف كما جاء في القرآن الكريم « لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » وكان أبو بكر ذا مال فلما أسلم أنفق ماله على النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الله ، وقد قدر ما أنفق بأربعين ألف درهم

وكان أبو بكر حسن الخلق في الجاهلية كما كان كذلك في الاسلام وقد تقدم في بيان سبب تسميته بالصديق على قول انه سمي بذلك لصدقه. وقد كان أبو بكر رئيساً وجيهاً من رؤساء قريش وكان يتحمل عن قومه بعض المغارم ويسعى في حملها ؟

ومما يدل على شرفه وفضله على قومه انه حينما دخل الاسلام واشتد أذى المشركين له خرج ليهاجر الى الحبشة فلقيه أحد سادات العرب وقال له الى أين ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسير في الارض فاعبد ربي. فقال له ذلك السيد: ان مثلك يا أبابكر لا يُخرَج ولا يَخرج، انك تكسب المعدم وتصل الرحم وتحمل الكَل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

وكان أبو بكر في الجاهلية صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم ولهذا بادر الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد الدعوة كما سيأتي في خبر اسلامه

يافا (فلسطين) عبد الله القلقيلي